الحياة ٨٩/٩/٨

تركيا... والحنين الى الامبراطورية

غسان سلامة *

■ لا يخفى تاريخ مدينة عاشت عز اسطنبول تماماً. لا وراء القنة الفقر المدقع ولا تحت اطنان الاسمنت، بل انت تبقى تلمسه في موقع المدينة الاستثنائي من على ضفتي البوسفور وفي بعض مبانيها العظيمة، بل وفي زوايا الاحياء الاتنية: هنا كان الارمن، هناك عاش اليونانيون، هنا مر تجار البندقية وهناك استقر ابناء جنوى. هذا البازار المصري ينفتح من قرب جسر غلاطة. وهذا مسجد الشام والعرب. وفي جزيرة بويوك ادا القريبة من مدخل البوسفور ما زال نصف السكان حتى اليوم ينتمون للطائفة اليهودية.

تلك هي الامبراطورية: عصبية حاكمة في المركز وعشرات الاتنيات والشعوب المتعايشة سلماً او حرباً، المرتبطة بالمركز بقوة او بهشاشة. وكما اظهرت العناية الالهية المعاصرة صلباناً مسيحية تحت رسوم متحف ايا صوفيا الاسلامية، كذلك تلمس لمس اليد الامبراطورية البيزنطية المتخفية تحت التاريخ العثماني، وهو اقرب الينا في الزمن. لكن القاعدة تكاد ان تكون واحدة: عاصمة وتخوم شاسعة تمتد من الخليج الى المحيط ومن روسيا للعرب فالهرزق.

جيران العثمانيين، كانت لهم ايضاً امبراطورياتهم. الروس في الشمال يحاولون بإصرار الوصول الى المياه الدافئة ويهددون اسطنبول البيزنطية ثم العثمانية. والفرس في الشرق يتناشون البلاد العراقية من العثمانيين، فتكون لهم النصرة يوماً ثم يندحرون والامبراطورية النمسوية في الغرب، تقف في وجه المد العثماني على ابواب فيينا، ثم تحاول مزاحمته في البلقان واوروبا الوسطى... ناهيك طبعاً عن الامبراطوريات البحرية واهمها امبراطورية الانكليز، التي ستختار دعم بقاء سلطنة بني عثمان حتى النهاية او بالكاد.

اولاد القرن العشرين يشهدون سنوياً ولادة دول جديدة هنا وهناك في العالم وبينها «دول» لا يزيد عدد سكانها على مئة الف مواطن. لكنهم يتناسون ان هذه الظاهرة السرطانية في توالد الدول وتكاثرها، ظاهرة حديثة للغاية. فاذا كان القرن العشرون قرن تزايد اعدادها، فانها كانت في القرون السابقة أميل الى التناقص من خلال توسع الامبراطوريات على حساب الدول والدويلات والاستيلاء عليها وضمها. ونستنتج فوراً ان تزايد عدد الدول في العالم، وفي منطقتنا تحديداً، ليس مساراً احادي الاتجاه: فالدول المتزايدة اليوم تناقصت بالامس. وما الكلام عن «ازلية» هذه الدولة او تلك او «ابدية» هذا الكيان او ذاك الا نوعاً من الهوس الشوفيني الصبياني.

نسوق هذا بالذات لاننا، عقب زيارة لاسطنبول، لم نستطع كبت حنين دفين للكيانات الواسعة، للامبراطوريات. سيهب اصحاب الدول القائمة والقوميون على اختلاف انواعهم، علينا يتهموننا بالسلفية وبرفض الحداثة. لذا اسارع بالقول ان «موضة» الترحم على السلطة العثمانية بصفتها دار الاسلام ودار الخلافة والدولة الاسلامية الكبرى، هذه «الموضة» لا تهمني واعتبرها من نوع الاسترجاعات السطحية. المهم هو الدول الممتدة القادرة، من خلال عصبية مركزية غير متسلطة كثيراً، على ان تتقبل وجود الجماعات المتنوعة دينياً ولغوياً واتنياً وان تعترف بها كجماعات لها كيانها الذاتي من دون ان تحاول (كما تفعل الدول الحديثة بروح اجرامية ان اوان محاسبتها عليها) طمس تراث الجماعات ومحوها من الوجود ودمجها القسري داخل هذه او تلك من «الامم» الوهمية. هذا التسامح مع الجماعات، تلك الحرية المتروكة للفرد وللمواطن بتعدد الهويات، المحلية والاتنية والامبراطورية، هذا هو مصدر الحنين في زمن الانصهار القسري الذي تشنه الدول الحديثة على الاقليات والاكثريات على السواء، فتؤدي بنا الى مذابح واضطهاد وقهر.

وعندما اسمع بعض المتحدثين في شؤون الاصالة والتراث يتكلمون عن الدولة اللبنانية بصفتها كياناً اصطناعياً، تصيبني الدهشة من فرط سطحيتهم. فقد تكون الدولة اللبنانية كما اعيد تركيبها في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن، اكثر دول المنطقة اصالة بمعنى من المعاني. فانت تلمس فيها نوعاً من اعادة تركيب نظام الملل الذي عرفناه في المنطقة قروناً عدة، قبل السلطنة العثمانية وخلالها، وانما على نطاق دولة صغيرة. لذلك نرى في لبنان استمرارية للماضي وللتراث، حاولت معظم الدول الاخرى طمسها وادعت تجاوزه خلال عقود الى ان جاء اليوم الذي تكشفت فيه العصبيات الدفينة المختبئة وراء شعارات القومية والاندماج والانصهار. وقد يظهر التاريخ ان اللبنانيين ابدوا شجاعة حيث بدر عن غيرهم جبن وحذر. فهم راوا الطوائف والعشائر واعترفوا بوجودها واسبغوا عليها صفة قانونية شرعية. بينما حاول الاخرون تجاهلها وطمسها فما لبثت ان انتفضت عليهم وكشرت عن انيابها.

وتعود هذه المشاعر الى الذهن في اسطنبول تحديداً، لان اثار نظام الملل في كل مكان من المدينة. في بيوغلو، اثار تجارة دولية محمية ايام بيزنطة وبني عثمان. وحول كنيستي بنديكتوس وبطرس ايضاً. بينما يختزن برج غلاطة تاريخ المدينة كله. وفي تجاور ايا صوفيا والمسجد الازرق، تلمس تشابه الهندسة وتعامل الشعوب الفني ما بعد السياسة وما فوقها. والمشاعر هذه تنتابك ايضاً لانك تسمع في اسطنبول، كما لا تسمع على الارجح في اي مكان اخر، هدى سقوط الامبراطوريات. وترى النتائج المعاصرة والمستمرة لذلك السقوط.

واذا كان هناك مجال لوصف هذه النتائج بكلمة، فهي كلمة «بلقنة». والبلقان يبدا تحديداً في ضاحية اسطنبول الغربية. فما تم استتبابه في مطلع القرن من الحدود، نسمع اليوم ارهاصات اعادة نظر جذرية فيه. عام ١٩١٢ اجتمع اليونانيون والعرب والبلغار لحرب على العثمانيين. وفي العام التالي هاجمت بلغاريا تحالف العرب واليونانيين وفي الحرب العالمية الاولى تهدمت امبراطوريتا العثمانيين والهابسبورغ، فنشات يوغوسلافيا الحديثة، يحكمها العرب على حساب الآخرين، لا سيما الكرواتيين. وتوسعت حدود رومانيا على حساب المجر وبلغاريا. وبينما نشات اقلية مضطهدة من الهنغاريين في رومانيا، نشات اقلية تركية مقهورة في بلغاريا الحديثة. ولم تقم تركيا الحديثة الا على جثث حوالي مليون ارمني وبضع ملايين من الاكراد بعد نفي وجودهم الثقافي في تركيا الكمالية.

الدول الحديثة لا تقوم فعلاً، في معظم الاحيان، الا باضطهاد الاقليات، وكان هذه الاخيرة كبش محرقة ضروري لقيام الدولة الحديثة. واليوم يدفع جنون العظمة والشوفينية الفاحشة نيكولاي تشاوشيسكو الى محو اثار مئات القرى التي يسكنها ابناء الاقلية الهنغارية. وهذا يفسر جنوح ابناء هذه الاقليات للهرب غرباً (استطاع حوالي ١٢ الفاً منهم الوصول الى هنغاريا عام ١٩٨٨). ولكن اكثر من مليوني هنغاري ما زالوا يعيشون في رومانيا تحت وطاة ديكتاتورية تعسفية تتجاهل حقوقهم وترغمهم منذ نحو عامين على تسجيل اولادهم باسماء رومانية.

وتشهد دولة «حديثة» اخرى (يوغوسلافيا) ارهاصات تفجر داخلي خطير. وتضم يوغوسلافيا اقلية كبرى من العرب (حوالي ٩ ملايين في مقابل عدد من الاقليات الاخرى اهمها الكرواتيون (حوالي ٥ ملايين). ومع ازدياد حدة الازمة الاقتصادية في البلاد، تعاظمت الروح الشوفينية لا سيما عند العرب، الذين اختاروا زعيماً شعبياً لهم يجاهر بالدفاع عنهم على حساب الوحدة الوطنية. والضحية الاولى لنمو هذا الشعور كان الالبان في جنوب يوغوسلافيا (حوالى مليونين)، حيث تتزايد الصدامات الاتنية في شوارع كوسوفو بين العرب والالبان.

والى الشرق من يوغوسلافيا، بلغاريا التي يعتقد زعماؤها ان مقدونيا اليوغوسلافية يجب ان تضم الى بلغاريا.

لكنك تسمع في اسطنبول خصوصاً عن ماساة الاقلية التركية المحتجزة في بلغاريا (حوالي ١٠ في المئة من السكان) التي بدات عام ١٩٨٤ حملة حكومية شعواء لصهرها في الاكثرية البلغارية قسراً... ومرة اخرى من خلال التغيير الاعتباطي لاسماء الاولاد. لقد اختار الالاف من الاتراك الهجرة شرقاً نحو اسطنبول بدل التخلي عن هويتهم، لكن مليوناً من الاتراك ما زالوا في بلغاريا، يتحملون آثار الانصهار «الحديث».

وبينما تعود آثار الخلاف البلغاري - التركي القديم الى السطح، تنفجر المسالة الارمنية مرة اخرى الى الشرق. فمنذ شباط (فبراير) ١٩٨٨ وارمينيا في غليان في شان قضية ناغورنو قره باخ، التي ادت حتى الساعة الى مئات القتلى في الصراع بين الارمن والاذربيجانيين. وفي جمهوريا المجاورة، عاد الشعور الوطني الى البروز على حساب غير اقلية دينية واتنية مجاورة. وفي تركيا الكمالية نفسها كم كانت دهشتي كبيرة عندما اعترف لي مسؤول حزبي كبير بانه اكتشف العام الماضي للمرة الاولى ان ملايين الاتراك يتكلمون لغة غير التركية (وهو يعني الاكراد). ويعتقد مثقفون كماليون كثيرون ان المسالة الكردية حلت نهائياً في بلادهم وانها تحولت الى قضية ديبلوماسية وحسب مع كل من العراق وايران وسورية، مما يؤدي احياناً الى بعض الاحتكاكات الحدودية (كما حصل اخيراً على الحدود مع سورية)!

لن اتكلم طبعاً عن الارث الامبراطوري الصعب في مقاطعات بني عثمان العربية. هنا ايضاً نشات دول «حديثة» في العراق وسورية ولبنان ناهيك عن الاردن وفلسطين حيث تداخلت الولاءات القديمة مع الهويات الحديثة، وحملت كل فئة «شرعية» تاريخية تتمسك بها حتى جاءنا من المؤرخين من يقول ان كل هؤلاء على خطا، لان الولاء الديني هو الولاء الاساس الذي تجاهلناه حتى الساعة، متجاهلين وقوعهم بدورهم في فخ اللجة التاريخ واعادة كتابته المستمرة وفقاً لاهواء الساعة ومصالح المعاصرين.

لماذا يجري هذا كله اليوم بالذات؟ ذاك هو السؤال. كيف استطعنا ان نعيش عقوداً على وهم الانصهارات المجتمعية القسرية الناجحة؟ كيف تمكنا ان نتناسى عقوداً طويلة ذكرى التعايش السلمي او الحاد في ظل الامبراطوريات وكان «الدولة الحديثة» التي نعرفها اليوم هي النتاج التاريخي النهائي وقمة التطور في التنظيم السياسي للشعوب؟ لقد لعبت الايديولوجيات الحديثة، قومية كانت او طبقية، دوراً سياسياً في الصهر الاجتماعي نفسه وفي تناسينا للولاءات القديمة المتجذرة العائدة اليوم بقوة.

اما العنصر الثاني فهو ولا شك غياب الديموقراطية. فمن السيء نفي هوية الجماعات واستقلالها النسبي، ان قامت الدولة برفع شان المواطن الفرد حقيقة، على حساب الجماعات العتيقة. فانت قادر ولا شك على تعبئة الفرد وعلى استخلاصه التدريجي من جماعته التقليدية ان انت احسنت معاملته كفرد. ولكن عندما يخرج الفرد من حمى الجماعة التقليدية ليدخل كمواطن في اطار دولة تسلطية (اياً يكن الشعار المستعمل لتبرير هذا التسلط) فمن الصعب منعه انذاك من الحنين لجماعته الاولى. لذا فالانصهار المجتمعي الحقيقي لا يتم فعلاً الا تدريجاً، الا في مناخ ديموقراطي، تحتل فيه المشاركة السياسية تدريجاً مكان الحماية التي كان الفرد يحظى بها داخل جماعته التقليدية. وما نشهده اليوم في الاتحاد السوفياتي هو تحديداً ازمة الانصهار المجتمعي في ظل نظام تسلطي. فما ان انفتح شباك صغير على الديموقراطية حتى خرجت القوميات والطوائف كلها من عقالها.

اما العنصر الثالث، وقد يكون الاهم، فنجده في الازمة الاقتصادية الخانقة التي تعيشها معظم هذه الدول، لا سيما الاتحاد السوفياتي ويوغوسلافيا. فلا ريب ان الفشل في مجال الاقتصاد يفجر هو الاخر الحنين الى الولاءات القديمة، لانه ليس من احد قابل ان يخسر الماضي والحنين اليه، لمصلحة حاضر مشوب لا بالتسلط وحسب بل ايضاً بالازمة الاقتصادية المستعصية والحياة غير الكريمة فعلاً. وما كان زعماء رومانيا، ولا زعيم العرب، ولا غيرهم ليسيروا في الخط الشوفيني المتجدد لولا الازمة الاقتصادية الخانقة التي لا يرون حلاً لها في القريب من الزمن... والتي عرفنا اثارها المدمرة في الثلاثينات عندما ادت الى انفجار الحرب العالمية الثانية.

ذلك هو مثلث الازمة الراهنة: مازق الايديولوجيات الانصهارية الحديثة، غياب المشاركة السياسية والفشل الاقتصادي التنموي الواسع. هذا المثلث جعل بعضهم يصف اوروبا الشرقية بانها «العالم الثالث في قلب اوروبا». وجعل بعضهم الآخر يتوقع فشل «بيريسترويكا» على يد القوميات المتجذرة. ولكن العابر على الجسر العالي فوق البوسفور، بين اسيا واوروبا لا يشعر فعلاً انه يمر بين قارتين او انه يعبر حدوداً. فربما ان الحدود الحقيقية هي التي تفصل اليوم المانيا الشرقية عن الغربية وبودابست عن فيينا. وربما ان العنصر الاساسي في مصير شرق المتوسط، من جورجيا في الشمال حتى مصر والسودان، موجود في موسكو وفي ما ستؤول اليه سياساتها الحالية. اذ نرى انذاك جواباً عن السؤال الحقيقي: هل ينفرط عقد اخر امبراطورية في الشرق، ام هل تبقى موسكو، على خلاف فيينا واسطنبول واصفهان، مقراً لآخر الامبراطوريات؟

---

* استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الاولى.